من يوميات مناضل جزائري

ساعات من نوفمبر

بقلم الجنيدي خليفة

لعل قيمة الثورة الجزائرية الخالدة تزداد في تقديرنا عظمة وجلالا اذا نحن اطلعنا على الظروف الصعبة التي كانت تعانيها وعلى العقبات الجبارة التي اعترضت سبيلها ، ولا سيما في بدايتها الاولى : فهذا الاطلاع مع مقارنته بالنجاح المظفر الذي سجلته هذه الثورة الكبيرة هو وحده الذي يرينا ان كل ما قيل في تمجيدها يظل اقل من مجدها الحقيقي .

وفي السطور التالية مقدمة أولية للانخراط في طريق المقاومة والجهد والتحمل ، انها لمحة من مساعي مناضل جزائري طالب في تونس ، في سبيل الاتصال بهذه الثورة وتوصيل اخوان له بها ، هي ساعات من يوم يقع في الاسبوع الاول من انفجار الثورة ، مأخوذة من كتاب للجنيدي خليفة سيصدر في القاهرة بعنوان « من وحي الثورة الجزائرية » يكرسه للحديث باسهاب عن جوانب عديدة من ثورة بلاده .

* * *

اليوم ٧ ـ ١١ ـ ١٩٦٢

استيقظت هذا الصباح في باكر الفجر بعد ان نمت اقل من ثلاث ساعات ، على طرق بالباب اشبه بطرق التلغراف ، انها الضربات التي اصطلحت عليها مع الاخ (م) . ودخل وهو يقول : كل شيء على مايرام، هل من سيجارة ؟

وكانت غالبا ما تنفد علينا السجاير اثناء الليل ، فلم تكن ميزانيتنا تسمح بشراء الاحتياطي ، ولم تكن سهراتنا منتظمة بحيث ننام غالبا في وقت متقارب ، وبينا رحت داخل المكتب التقط له ولنفسي بعض الاعقاب من منبوذاتنا او منبوذات الزائرين راح هو يروي لي تقرير المراقبة : « كانوا كثيري الالتواء مع الشوارع غير المباشرة ، وكان يلتفت واحد منهم احيانا وكانه يربط خيوط حذائه او يبصق ، ولكني لا اعتقد انهم لاحظوني .. وبعد حوالي ساعة انتهى بهم المطاف .. الى الخربة التي يقطنها الطالب (ميمون) وكان هناك بصيص من النور ظل يغريني بالبقاء في « المرصد » الذي اخترته داخل الخربة قبل ان ينطفىء بعد نصف ساعة . غير اني لم استطع ان التقط اية كلمة » .

ـ ميمون ؟ لاشك أن من كان منهم مقيما هنا هو الذي يعرفه ، ما رأيك فيه ؟ عهدي به انه متحمس ، أو ليس هو الذي كان يرسم لنا بذلك الخط الجميل ، الشعارات الوطنية ؟

ـ هو بعينه ، وهو عندي كذلك من احسن الاخوان غير انه مندفع ولا يخلو من الطيش ، على كل حال أرى ان اتصالهم به يجب ان يحملنا على التفاؤل بحسن نواياهم ..

ـ التفاؤل ؟ جائز ، ولكن اولا يمكن ان يكونوا ، اذا نحن تجنبنا كلا من التفاؤل والتشاؤم ، قد التجاوا اليه اما لتغطية سوء نيتهم واما لاستخدامه وسيلة للعثور على « راس الخيط » بعد ان رجحوا اننا منقطعون عن كل اتصال ؟ ...

ـ في مسالة الاتصال هذه عندي رأي قاطع انه لا وجود له اصلا بتونس . والاستثناء الوحيد الممكن هو الحدود . وليس اكثر . اتصال؟ هل تظن انهم سيتركون جميع شبكاتنا ليلتجئوا للتعاون مع «القومية» (١) ...؟! ولكن دعنا ننام الان ، فلعلنا نستطيع ان نفكر تفكيرا اجود بعد خمس ساعات من الراحة، وبعد شرب فنجان قهوة وسحب انفاس اطول مما يتيحها عقب ..

وبينما أخذ ينزع حذاءه استعدادا للنوم بالنادي حيث تعود الا يعود الى مقره الاصلي في اغلب الليالي ، كنت قد عثرت في جيب « البيجاما » الاعلى على سيجارة مكسورة ، فقدمتها له ، واخذت اغطيه وامسد قدميه ، ثم قلت له :

ـ ولكن لا بد يا اخي من العودة اليهم ومواصلة المراقبة بعد ساعات قبل ان ينفلتوا ، ويؤسفني اني لا استطيع القيام بذلك لمعرفتهم اياي .

ـ كلا لن اتركك تتعب نفسك ولو لم يعرفوك ، فلن انام غير ساعتين واعود .

وفي الساعة الخامسة كان الاخ قد استيقظ لاول تنبيه ، ففادر كلانا النادي دون ان أعلمه ، حسب ما تقتضيه المبادىء التنظيمية ، عن جهتي ومقصودي ، مقتصرا على اعلامه بالمكان الذي يغلب ان اكون موجودا فيه أثناء النهار .

* * *

خطر ببالي وانا افكر في وسيلة للاتصال بالثوار التونسيين الذين لا يزالون بجبال الحدود ، والذين في امكانهم ان يوصلونا بثوار « اوراس » ـ خاطر بدا لي كالبرق في ليل دامس ، كومضة منار بعد طول تخبط وضلال .. وكان هذا الخاطر هو ان اذهب الى بلدة (...) في الجهة الغربية حيث يمارس مهنة الطب دكتور وطني جزائري كنت معه على علاقة وطيدة بفضل الحزب ، وقدرت انه لا بد ان يكون قد عالج بعض الجرحى من هؤلاء الثوار ،فكون صلة معهم . ولم انتظر بعد هذه الخاطرة لحظة ، وانما اتجهت فورا الى محطة السيارات العمومية التي تؤدي الى بلدة الدكتور .

واذ اكتمل بعد قليل نصاب الركاب انطلقت السيارة ، فما ان ارتفع الضحى حتى كنت امام « فيلا » الدكتور . واستقبلني ببشاشة معهودة فيه ولكنها صادقة دائما وان لم تخل تعبيرات وجهه هذه

(١) اسم يطلق على الجنود الجزائريين الذين كانوا يعملون في بعض الحدود لفائدة الجيش الفرنسي.

المرة ، من بعض الاستغراب . ودون مقدمة قلت له بشيء من التهويل ان الاخ الاكبر (١) قد ارسل الينا من « ليبيا » خلية نورية علينـــا ادخالها سريا الى الجزائر في اقرب وقت لانها مكلفة بمهمة قد تتوقف عليها الثورة . فهل من الممكن العثور على من يعبر بهم الحدود ، على الاقل ؟.. وبسرعة وبعبارة مباشرة لم اتمالك من الاندهاش لهما، اجاب : بان ذلك ممكن وانه هو شخصيا مستعد لاصطحابهم في سيارته من العاصمة الى حيث الثوار .

وازاء هذا الموقف الذي كان يعد مفعما بالتضحية والشجاعة ، وبشعور خفي ربما يعود الى نجاحي في المهمة ـ اندفعت اليه اقبله وأرقص امامه ...

كان الفرح يستغرقني وتصور السرور الذي سيغمر الاخـــوان عندما ابشرهم بنجاح الخطة بملأني انفعالا دافئا محببا .. غير اني وقد ركبت سيارة الاجرة عائدا ، أخذت من جديد افكر : اولا اكون قـــد تسرعت ، هلا تثبت اولا من حقيقتهم ، او لا اكون قد جنيت على نفسي وعلى الدكتور وعلى من يتصل بهم ـ لو ان هؤلاء الذين ندعوهم «اخوانا» ليسوا غير جواسيس ، قوادين لفرنسا ؟؟؟ ...

وانتابتني قشعريرة من الخوف الشامل البارد . وشعرت ، لاول مرة ، ربما في حياتي كلها ، اني مسؤول بكيفية حقيقية واصلية عن خلق حدث ما « جدي » وعن مصير كائنات انسانية . وقلت ما هـو الطيش ان لم تكن هذه الفعلة أسوأ ما فيه ؟ ما هي الحماقة ان لم يكن شرها تعريض المرء نفسه للخطر بدون مقابل مادي ولا معنوي ؟! ثم آه. كيف على كل حال انزلقت من تلك الوطنية التي يجري كل شيء فيها لينا منتظما هادئا كما لو كانت حركة في عجلة جيدة التشحيم ، كيف انزلقت من هناك الى هذه الحماقات واصبحت عرضـــة للاعتقال والتعذيب بتلك الادوات الرهيبة ، في انتظار اعدامي ؟! ...

وتذكرت من جديد « المداني » ، ذلك الصبي الشجاع ، لقد شهد له زملاء اعتقلوا معه بقوة الاحتمال لكل انواع التعذيب التي عاناها، انه لم يبح بحرف واحد مما كان يعرف . هل ان ما ينتظرني الان ، وقد نجوت في العهد السياسي، سيكون ارعب اذن وارهب ؟ وهل سيكون علي اذن ان ابذل قدرا من القوة والشجاعة ، هو ، تبعا لذلك ، اعظم واشـــد ؟! ...

ومرت امام ذهني صورة مظلمة للمستقبل ، سأصبح سجينا ، ان نجوت من الاعدام ، وستفوتني الفرصة لمتابعـــة « القراءة والكتابة » فافقد « مواهبي » وأفقد شبابي . ووالدتي المسكينة . الا يكفيها ان تكون قد امضت ربع عمرها تتقلب في فراشها حزنا على « البـدري » (٢) الراسف في القيود او المنقلب في الزنزانة ، الا يكفيها ذلك حتى تختتم عمرها انتحابا على « المزوزي » (٣) .

لقد كانت ، آه .. لقد عاشت في الانتظار . في انتظار ان «يكبر الصغير ويطلق ربي سراح الكبير » . لكم عذبت نفسها في سبيل توفير الحياة علي ! لكم يا الهي حرمت نفسها في سبيل توفير هدية العيد في سجن أخي ، لا ، اني اريد ، اريد الا اكذب عليها وقد كذب عليهـا القدر ! أريد ان اضع نفس تحت توفير راحة ما بقي لها من العمـر ! والوطن ؟ او لا يكفي ان يضحي من اجله فرد من كل اسرة ، ولقـد قضى اخي زهرة حياته في سبيله ، فيجب ان ارتـــاح أنا ، ان ترتـاح والدتي ! حسنا . ولكن ، ولكن، هل انا الاخر ككل الناس ؟ رباه اني لا ارتضي ان اكون منافقا متلون المبادىء ! وانت يا نفسي ، كيف يمكن لك ان تعيشي على الجبن وحب الذات : آه . والوالدة ، والدراسة .. ولكن هل من الضروري ان اعتقل ؟ هل لا بد ان يعتقل كل من يباشر عملا وطنيا ؟ اولا يمكنني ان اعمل واتقي الوقوع في قبضتهم وان اعمل في النطاق الوطني واقضي فترات الفراغ في المطالعة والكتابة ؟!..

واقتنعت ان الفائدة ليست في ان يقال : لقد اعتقل فلان ، ولكن في ان يظل قائما بنشاطه . وقررت ان اظل « اطالع واعمل » او، لكي استعمل نفس الشعار الذي كنت أقررت انطباقه كليا ، اعيش بجميـع أبعـادي .

* * *

كانت السيارة تلحس الارض الممهدة ، وكان المطر ينهمر شآبيـب، وخيل الي اني حتى ولو لم اكن متصلا بأية مهمة ، فان « امرا ما يوشك ان يحدث » وان السر الكامن داخل المطر والفضاء ودوي محرك السيارة ـ قد انضغط وتركز الى الحد الذي سينفجر معه بائحا بكل ما كـــان ينطوي عليه .

وكان الشيء الذي احسست بانه يوشك ان يحدث ، مبهما غامضا ولا يمكنني بوضوح تعيين اية صفة من صفاته ، وكان الشعور به ، مـع ذلك ، من الحدة والشدة بحيث يملأ جميع احساساتي .. وادخلت يدي في جيبي لاستخرج سيجارة، اعقب بها على التي تبذتها من قليل، واذ فهم احد الركاب اني استنفدت العلبة ، قدم الي واحدة من عنده ، ولكني اعتدت على تدخين « لرتي » وهذه « سوبريـــور » ، فما ان ابتدأت اسحب انفاسها و وقد اخذت السيارة تطلق رائحة حادة مـن البنزين ـ حتى بدأت احس بالغثيان.

وسال في فمي خيط رفيع ذو طعم غريب ، طعم يذكرني بالتيـار الضئيل في البطاريات الجافة . كنت في صباي مولعـــا بها فاقضي الاوقات الطويلة في علاجها واختبار شحنتها بوضع لساني بين قطبها

(١) لقب الزعيم احمد بن بلله ، كما هو في نفس الوقت لقـــب الرئيس عبد الناصر عند بعض الوطنيين الجزائريين.

(٢)و (٣) البدري : مولود الام الاول ، والمزوزي هو اخر مواليدها في اللهجة الجزائرية .

في المكتبات

مع الإمام علي

رباه

من خلال «نهج البلاغة»

دراسة مستفيضة عن عبقرية الامام علي كسياسي وحكيم من خلال خطبه ورسائله التي يتضمنها كتابه الخالد « نهج البلاغة »

تاليف

خليل الهنداوي

منشورات
دار الاداب

الموجب وطرف سلك موصول بجانبها السالب . وتذكرت بألم ، كيف كانت والدتي تسخر مني وتعنفني كلما وجدتني أعالج « النوشادر » بالمكوى محاولا لحم احدى البطاريات المكتظة بمسحوق الفحم .

وكانت تعنفني بعبارات قاسية من أهونها هذه : « يا خسارة، جيت لمين ؟ لا اجدادك ولا اجداد بوك كانوا حدادين .. أنـــدادك قروا القران وحفظوا لجرومية ! ... »

القرآن ! اني لم اكن في حاجة الى حفظ اكثر مما تيسر منه ، ومع ذلك فقد اوشكت على اكماله ، والاجرمية ! يالله ، لقد انهيـــت دراستها في اول سنة دخلت تونس . وها انا الان اكاد اعرف عـن ظهر قلب « القطر » و « الالفية » و « الكافيـــة » (1) وكثيـرا مـن الشروح والتعاليق ...

وانتابني زهو وانا استعرض قائمة ما تعلمته واقارنها باسمـــاء الكتب التي كانت تذكرها على مسمعي الوالدة ، وقلت : اذن فيجـب ألا اغبن نفسي : اني عالم كبير ، ثم وهل تدري الوالدة ،التي كـــانت تفاخرني وتنعي علي حظي ، ما اصبحت عليه ؟ الاجداد ؟ ان احسنهم قد كتب « ديباجة » ممجوجة لاحدى « الشذرات » الملفقة .. اما انا فقد نشرت دون العشرين مقالا في أرقى المجلات حاز شكر احد كبـار المؤلفين والنقاد .

وظلت الذكرى تحوم بي على هذه المرحلة من صباي لا تريـــد مبارحتها ، كانت سني انذاك لا تزيد عن الثانية عشرة ، ولم يـــكن غرامي مقصورا على « البطاريات » ، فقد كنت مولعا كذلك بالبارود والسلاح ، لم يكن يهدأ لي قرار حتى اصبحت أجيد تركيبة البـــارود ـ مستعينا بارشاد احد المجندين العائدين ، وكنت اسرق مســـدس أخي وألعب به فأفك كثيرا من أجزائه لاعيد تأليفها ، وكنت لا اسمـع بعرس حتى أخف اليه وعلى كتفي « مقرون » (2) وبيدي كيس البارود .

اما العاب تقليد الجنود « وتنظيم » اترابي « عسكريا » فقـــد كانت تستغرق من الوقت ما يبقي عن الورشة « والكتّاب » . وذكرت بشيء من الاستغراب اللذيذ انه على الرغم مما كانت تسببه هذه الالعاب من عراك وتلك المتفجرات من مخاطر قد لا تكون هينة ، فان والدتـــي كانت تعلق عليها بشيء من الزهو ، على ما سمعت ذلك ذات مرة وقد تظاهرت بأني نائم داخل الحلقة المكونة من عجائز الحـي اللائي تعـودن زيارة الوالدة يوميا تقريبا ، ولا انسى ابدا عبارتها ذات مرة في مثل هذه الحلقة وقد عدت من احد الاعراس وبيدي « مقـرون » مسبل بكيفية حاولت بها تقليد الماهرين في حمل السلاح ، قالت وكأنها تحدث نفسها : « عندي مدة وانا نتمنى واحد من اولادي يدخل ها الدخلة ».

ها الدخله !؟ ـ اجل لقد دخلتها .

وقطعت علي خواطري مشارف العاصمة ، ولكنـــي لم اكن ارى داخلها غير الاخوان القادمين من «ليبيا » واخواني المشاركـين معي في المسؤولية عن التسيير ، وغير البوليس السري واليد الحمراء ..

ودخلت السيارة في اول شارع غير منفصل عن المدينة ، واخذت تترى هبات الصوت التي تحدثها من السرعة الاشجار والاعمدة ، على جانبي الطريق ، واخذ يغمرني الشعور بان ذلك « الحدث » المرتقـب قد ولد الان فعلا ، ورغم أني ظللت على عجزي من عدم تبين ملامحـــه وصفاته ، الا ان شعوري بان هذه الولادة قد تمت بعد ، لم يكن ليقل عن احساسي وانا استشرف منذ ساعة ، مقدمه ...

الجنيـــدي خليفـــة

(1) اسماء منظمات مشهورة في النحو .
(2) بندقية بدائية تستعمل بحشوها بمقدار من البارود السالب.

هذا الشهر

الاشتراكية والأدب

وَمقالات أخرى

تأليف

الدكتور لويس عوض

دراسات معمقة عن النزعة الاشتراكية
كما تبدو في آثار اكبر الكتاب العالميين

منشورات دار الآداب